ولا شك فى أن سائر هذا الهجاء القبلى قبل الإسلام كان يعتمد على التاريخ فيرجع إلى ماضى كلّ قبيلة ليعيّرها بمخازيها ويكسوها العارَ الذى يريد . وأيام العرب كثيرة لا سبيل إلى إحصائها قامت من أجلها قصائد ومطولات ، تعتمد على الغضب والحقد والنفور والعداوة ، فتعدّد الانتصارات وترسم الانكسارات وهذا كله أدخل فى الفخر والحماسة ، لأنه يذكر أيام النصر والظفر فيفتخر بها ، ويتندر ويتوعد ، ويذكر الهزائم فيعير بها . وأكثر هذا الشعر ثائر يصوّر مقاومة الطغيان ويستند إلى القوة ويصف البطش والدماء والقتلى ، ويأسف لوقوع ذلك ، ويرسم الموت المخيم على المعارك ، وقد يدعو إلى ترك ذلك ليلوذ القوم بالصلح والهدنة . وكان ذلك كله يدور حول المكارم العربية والأخلاق الرفيعة فيقول شاعرهم الحطيئة فى هجاء بنى عبدان :

لم نطأكمْ يوماً بظلم ولم نهـ ... ـتك حجاباً ولم نحلّ حـراما
يا بنى منذر بن عبدان والبط ... ـنةُ يوماً قد تأفن الأحـلاما[1]
لم أمرتُم عبداً ليهجـوَ قـوماً ... ظالميهـم من غيرْ جرم كراما

وهذا الشاعر على بذاءة لسانه وقدرته فى الهجاء لم يصنع شيئاً فى قوله هنا ، وإنما كان معاتباً ومفاخراً ، يدعو إلى الحلم والعقل والتبصر والبعد عن الظلم .

فلما جاء الإسلام سعى سعياً حثيثاً لإبطال العصبية وإسكات هذه الحروب القبلية ، وإماتة هذه المفاخر إلا فى نصرة الدين الجديد ، فكان يدفع القوم إلى الإيمان بهذا المفهوم الجديد كوطنية جديدة ، تجعل من المؤمنين مواطنين ومن دينهم وطناً جديداً ، لعلهم يندفعون معاً ضد المشركين الذين يريدون أن يهدموا حدود هذا الوطن الدينى الناشئ ، فدعاهم إلى التضحية وإلى التناصر وإلى الاشتراكية الفعلية من وحدة فى العبادة ، ووحدة فى المعاملات ، ففرّض الصيامَ والزكاة والصلاة والحج ، وأبطل ما عداها من أمور الجاهلية .

وهنا كان على المسلمين أن يقفوا فى صفّ وعلى المشركين أن يقفوا فى صفّ آخر ، فنشأ حزب وحزب — كما قلنا — واستولى الحزب الجديد على الأمر ،

---

(١) تأفن الأحلام : تذهب بها وتضعفها — رجل مأفون : ضعيف العقل .